عيّنة من الكتاب

(للتصفح والاطّلاع)

بسم الله الرحمن الرحيم

شيرلوك هولمز

مغامرة الرَّجُل الأحْدَب

وثلاث قصص أخرى

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لأربع من قصص
شيرلوك هولمز المنشورة أول مرة عام ١٨٩٣

The Adventure of the Gloria Scott
The Adventure of the Musgrave Ritual
The Adventure of the Reigate Squire
The Adventure of the Crooked Man

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنَع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا
الكتاب بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو
إلكترونية أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الثانية
٢٠٢٠

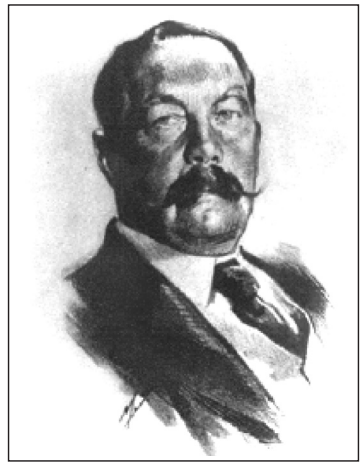

آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في سكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطَرَّته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه

إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلّات الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص، وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري. وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة في اللون القِرْمِزي» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

واحدة من تلك الحوادث كانت عن رجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث بدَّل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلَّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى

سكتلندا تغادر محطة كِنْغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.

عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور آرثر كونان دويل في حرب البُويِر (التي دارت في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولَقَبها «سيرْ» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

توفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل".

وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من

هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨، وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (شارع بيكر، ٢٢١ب) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته

وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِيةُ القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو، المحقق الشهير الذي ابتكرته أغاثا كريستي). وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وحصل على شهادته الجامعية في الطب سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش وشارك في الحملة الأفغانية، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية عام ١٨٩٣ «قَتل» دويل بطلَه شيرلوك هولمز، لكنه واجهَ احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة في اللون القِرْمِزي»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، هي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

في السنة التالية بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو) ١٨٩١، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشُغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة، نُشر

آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «مذكرات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة، وعنوانها «المشكلة الأخيرة»، في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يَحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على إعادة إحياء شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الفارغ» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد، فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الفارغ) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد التبت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كولْيِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة

«عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣. ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥) التي حازت على إعجاب النقّاد في كل الأوقات. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومَنْسيّة ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب غير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من مؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفِسور تشالنجر

(أشهرها رواية «العالَم المفقود») ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *

رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ قصص هولمز منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في

عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسة الجديدة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» كل من وُلْتَر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وتشارلز هَليدي وأَلِكْ بول وجوزف سمبسون وهنري بروك. أما السلسلة الأخيرة (قضايا شيرلوك هولمز) فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم هَوارد إلْكوك وفرانك وايْلز وألفرِدْ جِلبرْت.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند». أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كولِيرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردرِك دورْ ستيل، ومنهم جوزف فريدرتش ورِتشارد غوتشمت ووليَم هايْد.

* * *

مذكرات شيرلوك هولمز
(٥)

سفينة «غْلوريا سْكوت»

نُشرت للمرة الأولى في مجلة «سْتراند» الشهرية
في عدد نيسان (أبريل) ١٨٩٣

قال صديقي شيرلوك هولمز عندما جلسنا في إحدى ليالي الشتاء بجوار المدفأة: عندي هنا -يا واطسون- بعض الأوراق التي أعتقد أنك ستحبّ الاطلاع عليها، وهي مستندات قضية «سفينة غلوريا سكوت» الغريبة، ومعها الرسالة التي قضت على قاضي الصلح تريفور فمات رعباً عندما قرأها.

ثم أخرج من دُرْجه لفّة أسطوانية صغيرة متّسخة وفَكَّ عنها الرباط ليعطيني رسالة صغيرة مكتوبة بخط مستعجل في نصف ورقة من الورق الرمادي، وكان مكتوباً فيها: "عملية توريد طيور اللعبة إلى مدينة لندن انتهت. نعتقد أن الحارس هدسون تلقى الأوامر وأنه كشف طلبات الورق وكشف كل طلبات الطيور وأي شيء. لتحافظ على الطيور اهرب بها فهذا طريق للنجاة".

توقفت عن قراءة الرسالة المبهَمة ورفعت بصري، فرأيت هولمز يضحك من التعبير المرتسم على وجهي. قال: تبدو محتاراً قليلاً.

- لا أستطيع أن أفهم: كيف يمكن لمثل هذه الرسالة أن تثير الرعب؟ إنها تبدو لي مثيرة للعجب أكثر من أي شيء آخر.

- ربما. ومع ذلك تبقى حقيقة أن قارئها، وهو رجل لطيف نشيط كبير في السن، قد خَرّ صريعاً بسببها كما لو كانت

سلاحاً فتّاكاً.

قلت: إنك تثير فضولي. ولكن لماذا اعتقدتَ أن لهذه القضية بالذات خصوصيةً ترغّبني في دراستها؟

- لأنها كانت القضية الأولى التي حققت فيها على الإطلاق.

رغبت دوماً بمعرفة السبب الذي دفع رفيقي إلى الأبحاث الإجرامية، ولكني لم أجده قط في مزاج ملائم لطرح هذا السؤال عليه من قبل، أما الآن فقد تمدد في مقعده المريح ونشر المستندات على ركبتيه، ثم أشعل غليونه وجلس لبعض الوقت يدخن ويقلّب أوراقه.

سألني قائلاً: ألم يسبق لي أن حدّثتك عن فكتور تريفور قط؟ لقد كان صديقي الوحيد خلال العامين اللذين قضيتُهما في الكلية. فأنا لم أكن أبداً رجلاً اجتماعياً يا واطسون، بل فضّلت دائماً الانزواء في غرفتي وتطوير أساليبي الخاصة في التفكير، لذلك لم أختلط كثيراً بزملاء الدراسة، رغم ممارستي لبعض أنواع الرياضة، كالملاكمة ومبارزة الهواة.

وقد ساعدني على عزلتي أن مجال دراستي كان مختلفاً عن باقي الزملاء، فكان تريفور هو الوحيد الذي عرفته عندما عقر كلبُه كاحلي في صباح أحد الأيام. وعلى الرغم من كونها طريقة غير شاعرية إلا أنها كانت فعّالة لتكوين صداقة وطيدة، فقد عجزتُ عن الوقوف والمشي لمدة عشرة أيام، واعتاد تريفور أن يزورني ويطمئن عليّ. في البداية كانت مجرد

زيارات قصيرة تخللتها بعض الأحاديث العابرة، ولكنها طالت مع الأيام، وقبل نهاية المدة كنا قد أصبحنا صديقَين مقرّبين، حيث إنه كان رفيقاً مخلصاً وأصيلاً تملؤه العزيمة والطاقة. وكان على العكس مني في معظم النواحي، إلا أنه كانت لدينا بعض الاهتمامات المشتركة، فازداد تقاربنا لأنه كان مثلي بلا أصدقاء. وفي النهاية دعاني لزيارة منزل والده في قرية دونيثورب في نورفولك، وقد قبلت ضيافته لقضاء إجازة طويلة.

كان والده على درجة كبيرة من الثراء وذا مكانة اجتماعية عالية، حيث كان قاضياً للصلح وصاحب أملاك في دونيثورب، وهي قرية صغيرة إلى الشمال من لانغمير، بلد البحيرات. أما المنزل فقد كان مبنياً من الحجر على الطراز

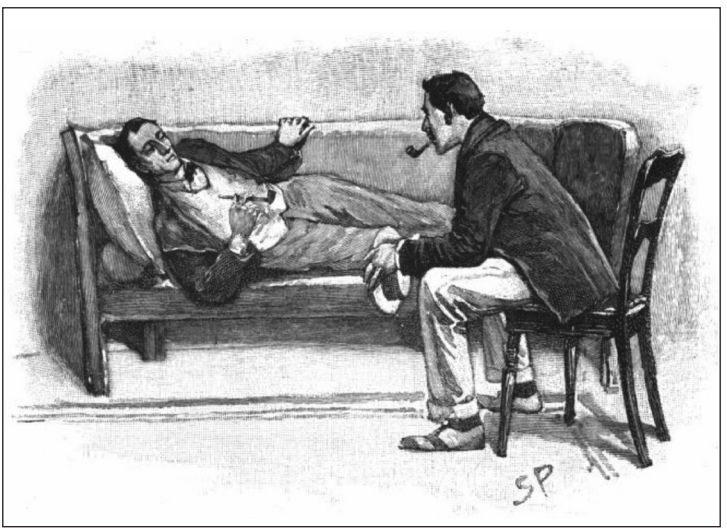

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

القديم، مترامي الأطراف تحيط به أشجار البلوط ويقودنا إليه طريق ممهَّد بأحجار الكلس الصغيرة. كان صيد البط البرّي في المستنقعات ممتازاً، وأيضاً صيد السمك كان جيداً بشكل ملحوظ، كما كانت لديهم مكتبة صغيرة ولكنها منتقاة بعناية، وقد أخذوها -كما فهمت- من صاحب المنزل السابق. وفوق ذلك كله كان الطباخ محتمَلاً، فكان من الطبيعي أن تقضى هناك شهراً لطيفاً إلا لو كنتَ صعب الإرضاء.

كان تريفور الأب أرملاً وكان صديقي هو ابنه الوحيد، وقد سمعت أنه كانت له ابنة ماتت بالدفتيريا حينما كانت في زيارة إلى برمنغهام. أثار الأب اهتمامي لدرجة كبيرة، فقد كان ضحل الثقافة، ورغم تمتّعه بقوة طبيعية من الناحية الجسدية والعقلية إلا أنه لا يكاد يعرف أيّ كتاب، ولكنه سافر بعيداً ورأى الكثير من هذا العالَم، وهو يتذكر كل ما تعلمه. كان ضخم الجسم مربوع القامة وشعره كثّ أشيب، أمّا وجهه فأسمر خشن وعيناه زرقاوان قاسيتان لدرجة الشراسة. ومع ذلك فهو يشتهر في الريف باللطف والإحسان، وقد عُرف عنه التساهل في أحكامه في قاعة المحكمة.

في مساء أحد الأيام بعد وصولي بوقت قصير وفيما كنا نشرب الشاي بعد العشاء أخذ تريفور الابن يتحدث عن ملاحظاتي واستدلالاتي التي كنت قد كوّنت لها نظاماً في ذلك الوقت (بالرغم من أنني لم أكن أعرف -بعد- الدور الذي ستلعبه في حياتي). وقد اعتقد العجوز أن ابنه يبالغ في وصف أعمالي البطولية المتواضعة، فقال ضاحكاً: حسناً يا سيد

هولمز. أنا أمثّل موضوعاً جيداً إذا كنتَ تستطيع استنتاج أي شيء عني.

أجبته قائلاً: أخشى أنني لا أعرف الكثير، وإن كنت أعتقد أنك أمضيت الشهور الاثني عشر الماضية في خوف من أن تتعرض لاعتداء أو هجوم من نوع ما.

تلاشت الضحكة عن شفتيه وحملق إليّ بدهشة شديدة ثم قال: هذا صحيح تماماً.

ثم قال وهو يلتفت ناحية ابنه: أتعرف -يا فكتور- أن زعماء العصابة التي أسقطناها أقسموا أن يقضوا علينا؟ لقد هوجم السير إدوارد هولي بالفعل، فالتزمتُ أنا الحذر منذ ذلك الوقت... وإن كنت لا أعرف كيف عرفت ذلك يا سيد هولمز.

أجبته قائلاً: أنت تملك عصا ممتازة، وقد لاحظت من النقش أنك لم تحصل عليها إلا منذ عام أو أقل من ذلك، ولكنك تكلفت عناء نزع الرأس وصببتَ الرصاص داخل التجويف لتجعل منها سلاحاً فعّالاً. وقد تخيلتُ أنك لن تتّخذ مثل هذه الاحتياطات إلا لو كنت تخشى بعض المخاطر.

سأل مبتسماً: أثمّة شيء آخر؟

- لقد مارست الملاكمة في شبابك كثيراً.

- صحيح مرة أخرى. ولكن كيف عرفت؟ هل رأيت في أنفي اعوجاجاً؟

- لا، بل هما أذناك، فهما تتميزان بخصائص أذن الملاكم في السماكة والفلطحة.

- وماذا بعد؟

- لقد أمضيت وقتاً طويلاً في الحَفْر كما يظهر من تصلب جلد يديك.

- جاءت كل أموالي من حقول الذهب.

- وذهبتَ إلى نيوزيلندا.

- أصبت ثانية.

- وزرتَ اليابان.

- إنك على حق تماماً.

- وقد ارتبطتَ من قريب بشخص الحروفُ الأولى من اسمه هي «ج أ»، ثم أردت نسيانه تماماً بعد ذلك.

وقف السيد تريفور ببطء وهو يثبّت عينيه الزرقاوين الواسعتين عليّ في حملقة غريبة هائجة، وبعد ذلك مال إلى الأمام ووقع مغشياً عليه ووجهه بين قشور اللوز المنثورة على القماش! وبالطبع -يا واطسون- تستطيع أن تتخيل كم صُدمنا بذلك، أنا وابنه، وإن كانت النوبة لم تستغرق وقتاً طويلاً على أية حال، فقد فتحنا ياقته ورششنا على وجهه بعض الماء، فشهق مرة أو مرتين ثم استوى جالساً.

قال وهو يتكلف ابتسامة: آه أيها الأولاد، أرجو أن لا

أكون قد أخفتكم. فمع أنني أبدو قوياً إلا أن قلبي ضعيف بعض الشيء، والقليل من الانفعال يصيبني بالإغماء. لا أعرف كيف تمكنت من ذلك يا سيد هولمز، ولكن يبدو لي أنك تتفوق على كل المخبرين، الحقيقيين منهم والخياليين! إن هذا هو طريقك في الحياة يا سيدي، ولتعتبرها نصيحة من رجل عنده خبرة كبيرة بالحياة.

إذا كنت ستصدّقني يا واطسون فقد كانت تلك النصيحة (ومعها المقدمة التي بالغ فيها الابنُ في تقدير قدراتي) أول ما جعلني أشعر بأن ما كان حتى ذلك الوقت مجرد هواية يمكن أن يتحول إلى مهنة. على أية حال فقد كنت في تلك اللحظة مهتماً بالمرض المفاجئ لمضيفي حتى إنني لم أستطع التفكير بأي شيء آخر، فقلت: أرجو أن لا أكون قد قلت شيئاً يسبب لك الألم؟

تحدث بطريقة شبه مازحة، وإن كان الرعب ما زال يكمن في عمق عينيه. قال: حسناً، لقد لمستَ وتراً حسّاساً بالتأكيد. هل أستطيع أن أسألك كيف عرفت كل ذلك؟ وما هو القدر الذي تعرفه؟

قلت: إن الأمر في غاية البساطة، فعندما كشفتَ ذراعك لتسحب تلك السمكة رأيت وشماً لحرفَي الجيم والألِف في ثنية مرفقك، وكان الحرفان ما يزالان واضحَين مع أن جهداً كبيراً بُذل لمحوهما، وقد بدا هذا واضحاً من الشكل المشوَّه لهما ومن تغيّر لون الجلد حولهما. من هنا عرفت أنهما كانا

حرفين مهمين جداً بالنسبة لك وأنك حاولت نسيانهما بعد ذلك.

صاح وهو يتنهد براحة وقال: يا لعَيْنك الثاقبة! إن الأمر كما تقول تماماً، ولكننا لن نتكلم عن هذا الأمر ولا عن الأشباح... فأشباح المحبين السابقين هي الأسوأ على الإطلاق.

* * *

منذ ذلك اليوم، وبالرغم من كل مودّته، كان هناك دائماً بعض الشك والحذر في تصرفات السيد تريفور نحوي، حتى إن ابنه علّق على ذلك قائلا: لقد أخفت الحاكم لدرجة أنه لن يكون متأكداً أبداً بعد الآن ممّا تعرفه أو لا تعرفه.

ولعله لم يرغب بإظهار ذلك، أنا متأكد، ولكن الأمر سيطر على تفكيره لدرجة أنه ظهر في كل تصرفاته، وأخيراً اقتنعت بأنني أسبّب له عدم الراحة، فأنهيت زيارتي. ولكن في نفس اليوم الذي كنت سأغادر فيه وقعت حادثة ظهرت أهميتها بعد ذلك.

كنا -ثلاثتنا- جالسين على مقاعد الحديقة ننعم بالشمس ونبدي إعجابنا بمنظر البحيرات عندما جاءت الخادمة لتقول إن بالباب رجلاً يريد رؤية السيد تريفور.

سألها مضيفي: ما اسمه؟

- لم يذكر اسمه.

- ماذا يريد إذن؟

- يقول إنك تعرفه وإنه يرغب في محادثتك لدقيقة فقط.

- أدخليه إلى هنا إذن.

بعد دقائق دخل رجل ضئيل كبير السن له طريقة تصرف متملقة ومشية ذليلة، وكان يرتدي سترة مفتوحة ملطَّخة على كمّها ببقعة من القطران وقميصاً أحمر وأسود وبنطالاً من قماش قطني خشن وحذاء طويل الرقبة ثقيلاً بالياً. أما وجهه فكان نحيلاً أسمر اللون خبيثاً مع ابتسامة دائمة تُظهِر خطاً من الأسنان الصفراء غير المنتظمة، وكانت يده المجعّدة مغلقة بطريقة مُميّزة للبحّارة.

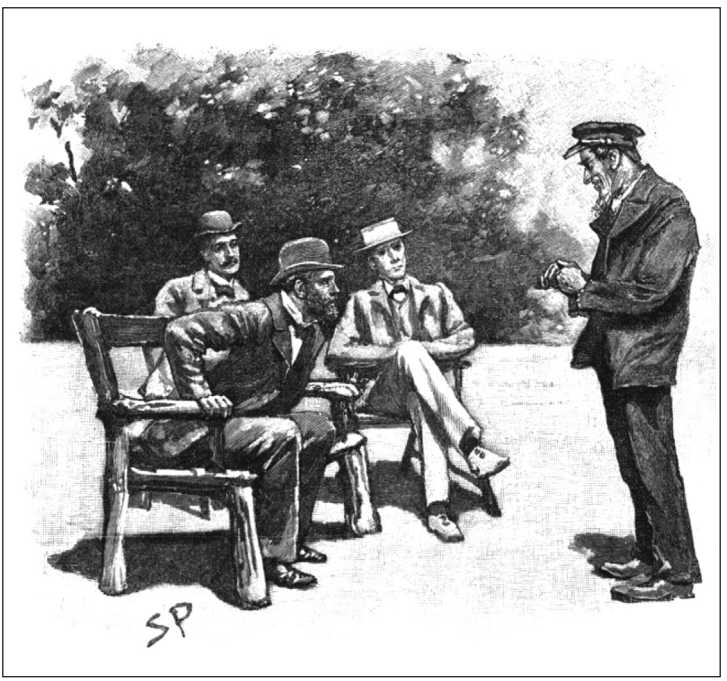

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

حين تقدم باتجاهنا بطريقة متراخية سمعت السيد تريفور يصدر صوتاً من حلقه مثل الفُواق، ثم قفز واقفاً وذهب إلى المنزل مسرعاً، وما لبث أن عاد بعد قليل، وحينها شممتُ رائحة الشراب القوية عندما مرّ بي.

قال: حسناً أيها الرجل، ما الذي أستطيع عمله لك؟

وقف البحّار ينظر إليه بعينين مزمومتين وبنفس الابتسامة المستمرة على وجهه. سأل: ألا تعرفني؟

قال السيد تريفور بنبرة دهشة: يا للعجب، يا إلهي! أنت هدسون بالتأكيد.

قال البحّار: صحيح يا سيدي... يا للعجب! لقد مضى أكثر من ثلاثين عاماً منذ آخر مرة رأيتك فيها، وها أنت هنا في منزلك وأنا ما زلت أشقى لآكل اللحم المقدَّد.

قال السيد تريفور وهو يمشى ناحية البحّار: هراء، ستجد أنني لم أنسَ الأيام الخوالي.

ثم قال شيئاً بصوت منخفض، وأردف بعد ذلك بصوت عالٍ قائلاً: اذهب إلى المطبخ وستجد الطعام والشراب، وأنا واثق أنني سأجد لك عملاً.

قال البحّار وهو يلمس مقدمة رأسه: شكراً يا سيدي. لقد أنهيت للتوّ عامين من العمل في سفينة شحن، لذلك فإنني أرغب في الراحة، وقد فكرت في أنني أستطيع الحصول عليها عندك أو عند السيد بيدوس.

صاح تريفور: آه، أتعرف أين هو السيد بيدوس؟

قال الرجل بابتسامة شريرة: فليباركك الله يا سيدي. أنا أعرف مكان كل أصدقائي.

بعد ذلك مشى متراخياً خلف الخادمة ذاهباً إلى المطبخ، فتمتم السيد تريفور لنا شيئاً عن كونه كان رفيق سفينة للرجل عندما كان ذاهباً للبحث عن الذهب. وقد تركَت هذه الحادثة كلها انطباعاً سيّئاً عندي، ولم أكن آسفاً حين غادرت دونيثورب في اليوم التالي، حيث شعرت أن وجودي كان مصدر إحراج لصديقي.

* * *

حدث كل ذلك في الشهر الأول من إجازتنا الطويلة، وقد رجعت بعدها إلى غرفتي في لندن، حيث قضيت الأسابيع السبعة التالية في المعمل منهمكاً في تجارب الكيمياء العضوية.

وفي أحد الأيام، حين كان الخريف في أواخره والإجازة توشك على الانتهاء، تلقيت برقية من صديقي يتوسل إليّ فيها أن أرجع إلى دونيثورب، ويقول إنه بحاجة شديدة إلى نصحي ومساعدتي. وبالطبع تركت كل شيء وتوجهت إلى الشمال مرة أخرى، وقابلني صديقي في المحطة بعربة تجرها الكلاب، ورأيت بلمحة خاطفة أن الشهرين الماضيين كانا في غاية الصعوبة عليه، فقد صار نحيلاً مهموماً وفقَدَ شخصيته المرحة الصاخبة التي كانت تُميّزه.

كانت كلماته الأولى هي: إن الحاكم يموت.

صحت: مستحيل! ماذا حدث؟

- سكتة دماغية أو صدمة عصبية... لقد كانت حالته حرجة للغاية طوال اليوم وأشكّ أننا سنجده حياً عندما نصل.

سألته وقد روّعتني هذه الأخبار غير المتوقَّعة: ماذا كان السبب؟

- آه، هذا هو بيت القصيد. اركب العربة وسوف نناقش الأمر ونحن في الطريق. هل تذكر ذلك الرجل الذي جاء في المساء قبل أن تغادرنا؟

- أذكره تماماً.

- هل تعرف مَن الذي سمحنا بدخوله البيتَ في ذلك اليوم؟

- ليست لديّ أية فكرة.

- لقد كان الشيطان يا هولمز!

حملقت إليه بذهول.

- نعم، لقد كان الشيطان بعينه، فلم نحظَ بساعة هادئة منذ ذلك الوقت... ولا ساعة واحدة. أبي لم يرفع رأسه أبداً منذ ذلك المساء، والآن سُحبت منه الحياة وتحطم قلبه... كل ذلك بسبب هذا الملعون هدسون.

- وما هو مصدر قوّته؟

- آه، هذا ما أنا مستعد لدفع الكثير لكي أعرفه. كيف

يسقط قاضي الصلح المحسن اللطيف في براثن مثل هذا الشخص الغوغائي؟! لكني سعيد جداً بمجيئك يا هولمز، فأنا أثق في حكمك وتقديرك وأعرف أنك ستنصحني بما هو مناسب.

مضينا مسرعين على الطرق الريفية الجيرية الناعمة والبحيراتُ الممتدّة أمامنا تلمع بالضوء الأحمر لغروب الشمس، وكنت أستطيع رؤية المداخن العالية وسارية العلم المميزة لمنزل المالك عبر الحقول التي امتدت على يسارنا.

قال رفيقي: لقد جعل أبي الرجلَ بستانياً، وكأنه لم يرضَ بذلك فمنحه ترقية ليصبح رئيساً للخدم، وبدا وكأن المنزل صار تحت رحمته ليتجوّل فيه ويفعل ما يريد، حتى إن الخادمات كنّ يشتكين من عاداته في الشراب ومن لغته البذيئة، مما اضطر أبي إلى رفع رواتبهنّ جميعاً لتعويضهنّ عن إزعاجه الدائم. وكان يأخذ قارب أبي وأفضل مسدساته ويذهب في رحلات صيد صغيرة، كل ذلك وعلى وجهه علامات الخبث والسخرية والوقاحة، مما يجعلني أفكر أن أوسعه ضرباً أكثر من عشرين مرة لو كان في مثل عمري. لقد اضطررتُ إلى السيطرة على نفسي بشدة كل هذا الوقت يا هولمز، والآن أسأل نفسي إذا كان ما فعلته هو التصرف الصحيح.

حسناً، لقد ازدادت الأمور تردّياً وأصبح هذا الحيوان هدسون أكثرَ تطفلاً ووقاحة، حتى إنه ردّ على أبي بطريقة وقحة ذات يوم، وعندها أمسكت بكتفيه وأخرجته من الغرفة،

فانسلّ هارباً بوجه شاحب وعينين حقودتين تنذران بتهديد أكثر مما يستطيع لسانه. ولا أعرف ما الذي حدث بينه وبين أبي المسكين بعد ذلك، ولكن أبي جاء إليّ في اليوم التالي وطلب منى الاعتذار إلى هدسون، فرفضت.

ثم سألت أبي: كيف يسمح لمثل هذا الحقير بأن يتصرف بحرية معه ومع كل من في المنزل؟ فقال: آه يا بني، ينبغي أن نتحدث. أنت لا تعرف موقفي، ولكنك ستعرف يا فكتور... سأحرص على أن تعرف وليحدث ما هو مقدَّر. ولكنك لن تصدق أي شيء سيّئ عن أبيك العجوز المسكين، أليس كذلك؟

كان متأثراً جداً، فحبس نفسه في المكتبة طوال اليوم، حيث كنت أستطيع رؤيته من النافذة وهو مشغول بالكتابة. وفي ذلك المساء حدث ما بدا لي وكأنه خلاص كبير، حيث أخبرَنا هدسون أنه سوف يغادرنا. فقد دخل إلى غرفة الطعام بعد العشاء وأعلن عن نيته بصوت أجش، قال: لقد مللتُ من نورفولك، سأذهب إلى السيد بيدوس في هامبشاير، وسوف يُسَرّ كثيراً لرؤيتي كما حدث معك يا سيدي.

فردّ عليه أبي بتذلل جعل الدم يغلي في عروقي، قال: أرجو أن لا ترحل إطلاقاً يا هدسون.

فقال بامتعاض وهو ينظر ناحيتي: لكنني لم أحصل على اعتذار.

قال أبي وهو ينظر إليّ: اعترف يا فكتور بأنك عاملتَ هذا

الرجل الفاضل معاملة خشنة.

أجبته: بالعكس؛ أنا أظن أننا صبرنا عليه بشكل غير عادي.

زمجر قائلاً: آه، أهذا ما تظنه؟ حسن جداً يا صاحبي، سنرى بشأن ذلك.

ثم خرج من الغرفة متراخياً، وبعد نصف ساعة غادر

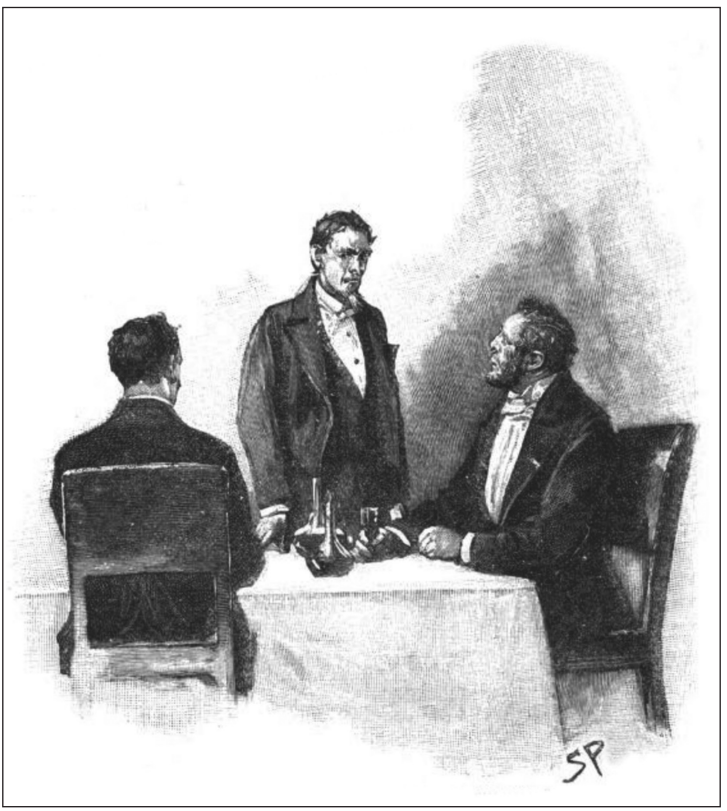

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

المنزل تاركاً أبي في اضطراب يُرثى له. وليلة بعد أخرى كنت أسمعه يجوب غرفتَه قلقاً، وحين بدأ يستردّ اطمئنانه وقعت النكبة أخيراً.

سألت بلهفة: وكيف كان ذلك؟

- بأكثر الطرق غرابة. استلم أبي مساء أمس خطاباً يحمل طابع بريد من فوردينغ بريدْج، وحين قرأه أمسك رأسَه بكلتا يديه وراح يجري في الغرفة في دوائر صغيرة كرجل فقَدَ رشده، وحين جررته إلى الأريكة أخيراً كان فمه وجفناه في حالة تشنّج في ناحية واحدة، وأدركت أنه أصيب بجلطة دماغية. وجاء الدكتور فوردهام على الفور ووضعناه في السرير، ولكن الشلل انتشر ولم تظهر أي إشارة على استعادته الوعي... ولا أظن إلا أننا سنجده الآن ميتاً.

صحتُ قائلاً: إنك تخيفني يا تريفور! ماذا يمكن أن يكون في تلك الرسالة ليسبّب مثل هذه النتيجة المرعبة؟

- لا شيء، وهذا هو الجزء الذي يصعب تفسيره. الرسالة غريبة وتافهة... آه، يا إلهي! هذا ما كنت أخشاه.

بينما كان يتكلم كنا ندور لندخل الطريق المؤدي إلى المنزل، ورأينا في الضوء الخافت أن كل ستائر المنزل مُسدَلة. وحين أسرعنا إلى الداخل والحزن يكسو وجهَ صديقي خرج من البيت رجل يرتدي السواد، فسأله تريفور: متى حدث ذلك يا دكتور؟

- تقريباً بعد ذهابك مباشرة.

- هل استعاد وعيه؟

- للحظة قبل أن يموت.

- هل ترك لي أية رسائل؟

- قال فقط إن الأوراق في الدُّرْج الخلفي للخزانة اليابانية.

توجه صديقي مع الطبيب إلى حجرة الموت وبقيتُ أنا في المكتبة، فأخذت أقلب الأمر في عقلي مرة بعد أخرى وأنا أشعر بالكآبة كما لم أشعر بها في حياتي من قبل. فما هو ماضي تريفور؟ وما الذي يجعل ملاكماً ورَحّالة وباحثاً عن الذهب يضع نفسه تحت رحمة ذلك البحّار ذي الوجه القبيح؟ ولماذا أغمي عليه عند الإشارة إلى الأحرف الأولية نصف المطموسة على ذراعه؟ وما هو السبب في موته رعباً حين تسلم خطاباً من فوردنغهام؟

عندها تذكرت أن فوردنغهام تقع في مقاطعة هامبشاير وأن السيد بيدوس، الذي ذهب البحار لزيارته وربما لابتزازه، يعيش أيضاً في هامبشاير، فإما أن يكون الخطاب -إذن- من هدسون البحّار يخبره فيه بأنه أفشى السر، أو من بيدوس يحذّر فيه شريكَه القديم من أن السرّ على وشك الافتضاح.

حتى الآن كان كل شيء واضحاً بما فيه الكفاية، ولكن كيف يصف ابنُه الخطابَ بأنه تافه وغريب؟ لا بد أنه لم يفهمه جيداً، ولو أن هذا هو ما حدث فلا بد أنه مكتوب بإحدى تلك

الشفرات السرية البارعة التي يدل ظاهرها على شيء في حين أنها تعني في حقيقتها شيئاً آخر.

قلت في نفسي: يجب أن أرى هذا الخطاب، ولو كان فيه أيّ مَعنى خفيّ فأنا على ثقة أنني أستطيع اكتشافه. ثم جلستُ نحو ساعة أفكر بالأمر باكتئاب، وأخيراً جاءت الخادمة باكية تحمل مصباحاً وخلفها مباشرةً جاء صديقي.

كان تريفور شاحب الوجه ولكنه كان متماسكاً، وكان يمسك بنفس هذه الأوراق التي أضعها الآن على ركبتيّ. جلس مقابلي، ثم سحب المصباح إلى حافة الطاولة وأعطاني رسالة قصيرة مكتوبة بخط سيّئ -كما ترى- على ورق رمادي، وفيها هذه الكلمات: "عملية توريد طيور اللعبة إلى مدينة لندن انتهت. نعتقد أن الحارس هدسون تلقى الأوامر وأنه كشف طلبات الورق وكشف كل طلبات الطيور وأي شيء. لتحافظ على الطيور اهرب بها فهذا طريق للنجاة".

أعترف بأن الحيرة بدت على وجهي مثلما تبدو الآن على وجهك حين قرأت الرسالة للمرة الأولى. وقد أعدت قراءتها بإمعان شديد، ولكنها كانت مشفَّرة كما توقعت، فلا بد أن معنى خفياً يكمن في تلك التركيبة الغريبة من الكلمات، أو ربما كانت لبعض العبارات (كتوريد الطيور وطلبات الورق) دلالات متفَق عليها مسبقاً، وفي هذه الحالة يكون معناها اعتباطياً ولا يمكن تخمينه بأيّة طريقة.

كرهت أن أصدق أن الأمر كذلك، وبدا أن كلمة

«هدسون» تشير إلى أن موضوع الرسالة كان كما خمّنت وأنها لا بد أن تكون من بيدوس وليس من البحّار. حاولت قراءتها بالعكس ولكن التركيبة لم تكن مشجّعة، ثم حاولت تبديل الكلمات ولكن دون جدوى.

وفجأة صار مفتاح اللغز في يدي، فقد وجدت أننا لو أخذنا كل رابع كلمة من الرسالة فسوف نحصل على عبارة ربما تقود تريفور الأب إلى اليأس. لقد كان التحذير قصيراً وقاسياً عندما قرأته آنذاك لرفيقي: "اللعبة انتهت. هدسون كشف كل شيء. اهرب للنجاة"!

دفن فكتور تريفور وجهَه في كفّيه المرتعشتين وقال: لا بد أن يكون ذلك صحيحاً. إن هذا أسوأ من الموت، فهو يعني

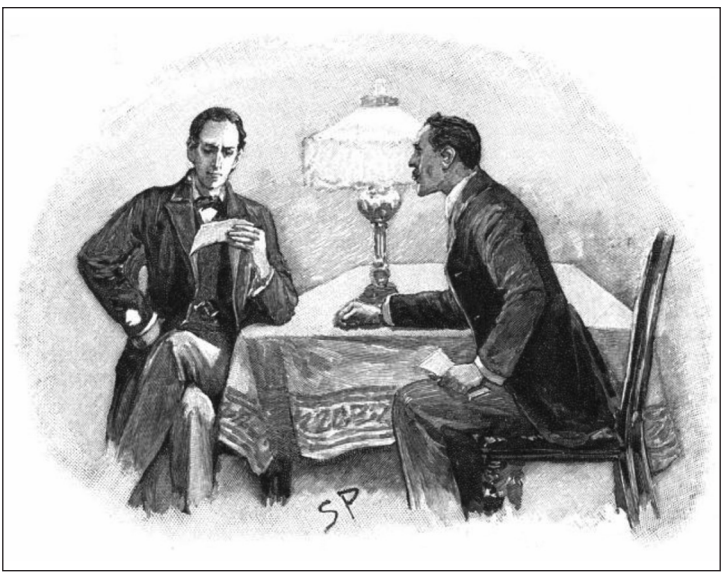

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

العار أيضاً... ولكن ما معنى عملية توريد الطيور وما إلى ذلك؟

- لا علاقة لها بالرسالة فيما أظن. يمكنك أن ترى أنه بدأ بكتابة: اللعبة... انتهت... إلخ، وبعد ذلك ولإتمام الشفرة المتفَق عليها مسبَقاً وضع أيّ ثلاث كلمات في كل فراغ. ومن الطبيعي أن يستخدم أول كلمات تخطر على باله، فإذا كانت في الرسالة كلمات تشير إلى الطيور والصيد فيمكن أن نضع احتمالاً بأنه من هواة الصيد أو أنه من المهتمين بتربية الطيور. هل تعرف أي شيء عن هذا المدعو بيدوس؟

قال: يا للعجب! تذكرت الآن أن أبي المسكين اعتاد أن يتلقى منه دعوات للصيد في محميّته كل خريف.

قلت: إذن فإن الرسالة منه بالتأكيد. يبقى الآن أن نعرف ما هو هذا السر الذي كان هدسون البحّار يهدد به هذين الرجلين الغنيين المحترمين.

صاح صديقي: أخشى أن يكون في الأمر خطيئة أو عارٌ يا هولمز. ولكني لن أخفي عنك أي أسرار. ها هي الأوراق التي كتبها أبي عندما عرف أن خطر هدسون بات وشيكاً، وقد وجدتها في الخزانة اليابانية كما خبّر أبي الطبيب. خذها واقرأها على مسامعي لأنني لا أملك الشجاعة لقراءتها بنفسي.

هذه -يا واطسون- هي الأوراق نفسها التي قدمها لي يومَها، وسوف أقرؤها عليك كما قرأتها عليه في المكتبة في تلك الليلة. وكما ترى مكتوباً على الأوراق من الخارج فإنها

تحتوي على بعض التفصيلات المتعلّقة برحلة السفينة «غلوريا سكوت» من وقت مُغادرتها ميناء فالموث في الثامن من تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٥٥ إلى وقت تدميرها في خط العرض ١٥ درجة شمالاً وخط الطول ٢٥ درجة غرباً، والأوراق في هيئة خطاب نصّه كما يلي:

ابني العزيز جداً،

الآن والعار يقترب مني ليدنّس السنوات الأخيرة من حياتي أستطيع أن أعترف بكل الصدق والأمانة بما يلي: ليس ما يجرح قلبي هو الرهبة من القانون ولا هو الخشية من فقدان مركزي في المجتمع أو حتى خوفي من أن يحتقرني كل من أعرفهم، بل هو التفكير بأنك ستخجل مني... أنت من أحبَّني ولم يكن عندك -كما أتمنى- من الأسباب إلا ما يحملك على احترامي. ولكن إذا وقعت النكبة التي كنت مهدَّداً بوقوعها دائماً فأرجو منك أن تقرأ هذا لتعرف مني مباشرة مقدار ذنبي. أما إذا سارت الأمور على ما يرام واستجاب الله العظيم دعائي، ثم حدث -لأيّ سبب- أن نجت هذه الأوراق من الإتلاف ووقعت بين يديك فإنني أناشدك بذكرى أمك العزيزة وبالحب الذي كان بيننا أن تحرقها ولا تفكر بها مرة أخرى أبداً.

أما إذا وقع نظرك على هذا السطر فلا بد أنني فُضحت وقُبض عليّ، أو أن من المرجَّح -نظراً لضعف قلبي كما تعلم- أن أكون قد متّ وتوقفت عن الكلام إلى الأبد. في كلتا الحالتين يكون وقت الكتمان قد فات، وكل كلمة أقولها لك

هي الحقيقة الكاملة وأقسم على ذلك، كما أتمنى الرحمة من الله.

إن اسمي -يا ولدي العزيز- ليس تريفور، فقد كان اسمي في سنوات شبابي هو جيمس آرميتاج، وسوف تفهم الآن الصدمة التي أصابتني منذ عدة أسابيع حين وجّه لي صديقك من الكلمات ما قد يشير إلى اكتشافه سري.

عملت وأنا باسم آرميتاج في مؤسسة لندن المصرفية، ثم ارتكبت جرماً فحُكم عليّ بالنفي. لا تَقْسُ عليّ بالحكم يا صغيري، فقد كان دَيْنَ شرف، هكذا يُسمّى، ووجب عليّ دفعه فاستخدمت أموالاً ليست لي لفعل ذلك وأنا على يقين من قدرتي على إعادتها قبل اكتشاف فقدانها. لكن سوء الحظ لازمني، فالمال الذي كنت أعتمد عليه لم يأتِ وكشفَ فحصٌ مبكّر للحسابات عن هذا العجز، وكان من الممكن التعامل مع القضية بتساهل أكثر، لكن القوانين كانت تطبَّق بصرامة أشد منذ ثلاثين عاماً عمّا هي الآن. وهكذا وجدت نفسي في عيد ميلادي الثالث والعشرين مقيَّداً كمجرم مع سبعة وثلاثين من المحكومين في سفينة «غلوريا سكوت» المتجهة إلى أستراليا.

كان ذلك عام ١٨٥٥ حين كانت حرب القِرم في ذروتها، واستُخدمت سفن نقل المجرمين القديمة بكثرة في النقل بالبحر الأسود مما أرغم الحكومة على استخدام سفن أصغر وأقل صلاحية لنقل سجنائها. كانت سفينة «غلوريا سكوت» تُستخدَم في تجارة الشاي الصيني، ولكنها كانت قديمة الطراز وذات مقدّمة ثقيلة، وكانت حمولتها خمسمئة طن. إلى جانب

السجناء الثمانية والثلاثين كانت تحمل ستة وعشرين من أفراد الطاقم وثمانية عشر ضابطاً وقبطاناً وثلاثة مساعدين، بالإضافة إلى طبيب وقسيس وأربعة حراس. أي أنها تحمل ما يقارب مئة شخص، وكانوا كلهم فيها حين أقلعنا من فالموث كما ذكرت.

كانت الحواجز بين حجرات المذنبين رقيقة وضعيفة جداً بدلاً من أن تكون من خشب البلوط كما هو الحال في سفن نقل المجرمين العادية. وكان الرجل الذي يقف خلفي تماماً من الذين لاحظتهم بوجه خاص عندما اقتادونا على رصيف الميناء، وهو شاب له وجه رائق حليق مع أنف طويل نحيل وفكين شديدي القوة. وكان يمشي في خُيلاء رافعاً رأسه بزهو، ثم إنه كان متميزاً بطوله غير العادي، فلا أظن أن أيّاً من رؤوسنا كان ليصل إلى كتفيه. كان من الغريب رؤية مثل ذلك الوجه المليء بالقوة والعزم وسط كل تلك الوجوه الواجمة المتعبة، وكان ذلك بالنسبة لي كمصدر الدفء في عاصفة ثلجية، فسررت حين اكتشفت أنه كان جاراً لي، وكنت أكثرَ سعادة عندما سمعت همسة قريبة من أذني في عمق الليل وعرفت أنه استطاع شق فتحة في اللوح الخشبي الفاصل بيننا.

قال: أهلاً يا زميل، ما هو اسمك؟ ولماذا أنت هنا؟

أجبته، ثم سألته من يكون، فقال: أنا جاك برندرجاست، وسوف تتعلم أن تقدّس اسمي قبل أن تنتهي من حديثك معي.

تذكرت أنني سمعت عن قضيته لأنها أثارت هياجاً هائلاً في كل أنحاء البلاد قبل أن يُقبَض عليّ ببعض الوقت. كان

ينحدر من عائلة ممتازة ولديه الكثير من القدرات العظيمة، لكنه كان ذا طبع شرير وبراعة غريبة في الاحتيال على تجّار لندن الكبار واستلاب مبالغ ضخمة منهم.

قال بفخر: ها! أراك تذكرت قضيتي؟

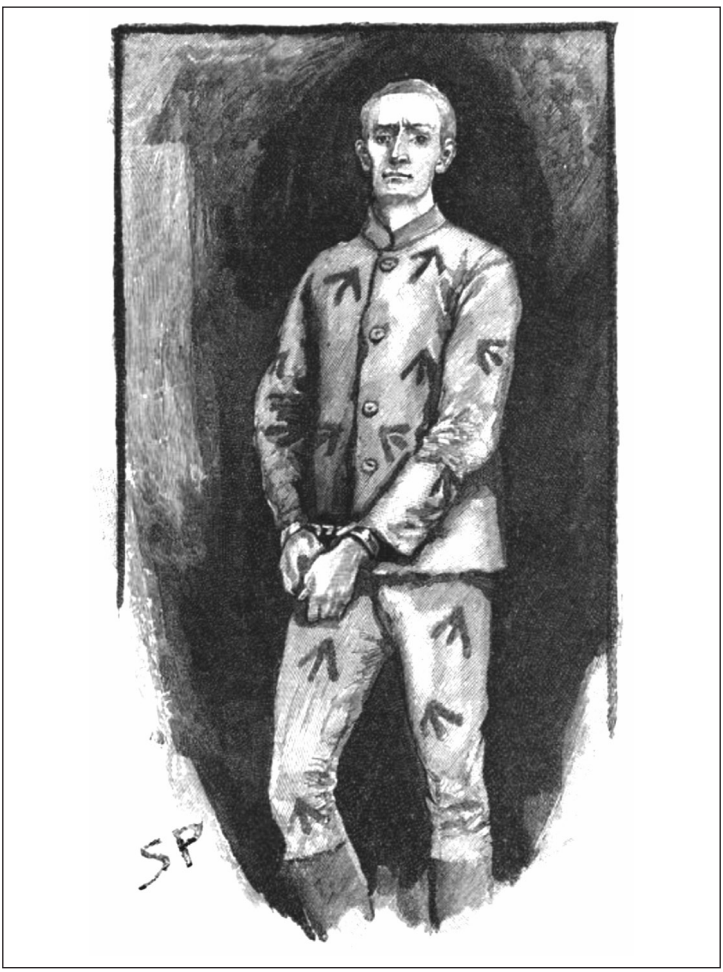

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

- تذكرتها جيداً بالفعل.

- ألا تتذكر شيئاً غريباً كان فيها؟

- ما هو ذلك؟

- لقد حصلتُ على ربع مليون جنيه، أليس كذلك؟

- هذا ما يقولونه.

- ولم يستردوا منه أي شيء؟

- نعم.

سأل: إذن أين سيكون المال باعتقادك؟

قلت: لا فكرة عندي.

صاح قائلاً: إنه بين أصابعي! إن عندي من الأموال أكثر من شعر رأسك، وعندما تملك المال -يا بني- وتعرف كيف تتعامل به وتوزعه تستطيع تحقيق أي شيء. حسناً، لا يمكن أن تعتقد أن شخصاً قادراً على فعل أي شيء سيجلس حتى تبلى ملابسه في هذا الحبس ذي الرائحة الكريهة الناشئة من بقايا الفئران والخنافس والذي يشبه الكفن القديم. لا، مثل هذا الشخص لا بد أن يعتني بنفسه وبزملائه، ويمكنك أن تعتمد على ذلك وتتمسك بهذا الشخص وأن تثق بأنه سيسحبك خارجاً من هذا المكان.

كان ذلك أسلوبه في الكلام. في البداية ظننتُ أنه لا يعني شيئاً، ولكن بعد فترة وعندما اختبرني وجعلني أقسم بكل ما

هو مقدس فهمت منه أنه دبّر مؤامرة للسيطرة على السفينة، وأن دستة من السجناء رتبوها قبل أن يركبوا على متنها، وأن برندرجاست هو القائد وأن أمواله هي الدافع المحرك.

قال: معي شريك جيد نادر الوجود، وهو يملك الأموال. هل تستطيع أن تخمّن أين هو في هذه اللحظة؟ إنه قسيس هذه السفينة! القسيس، وليس أقل من ذلك! لقد ركب السفينة بالمعطف الأسود وكل أوراقه صحيحة ومعه ما يكفي من الأموال ليشتري هذه السفينة بكل ما فيها. إن أفراد طاقم السفينة كلهم معه قلباً وقالباً، فقد اشترى إخلاصهم... اشتراهم بالجملة! ومعه أيضاً اثنان من الحراس والمساعد الثاني، ويمكنه الحصول على القبطان نفسه إذا اعتقد أنه ذو فائدة.

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمُل أن تكون قد استمتعت بقراءة جزء من هذه المجموعة القصصية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذا الكتاب (وسواه من الإصدارات) من موقعنا مباشرة، ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو احتجت لأي مساعدة.

الأجيال
www.al-ajyal.com